# من قضاء شريح

عن الشعبى قال: اشترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرسا من رجل على أن ينظر إليه، فأخذ الفرس فسار به فعطب (أى أصابته إصابة) فقال لصاحب الفرس خذ فرسك، فقال: لا، قال: فاجعل بينى وبينك حكما، قال الرجل: شريح[1] قال: ومن شريح، قال: شريح العراقى، قال: فانطلقا إليه، فقصا عليه القصة، فقال: يا أمير المؤمنين رد كما أخذته، أو خذ بما ابتعته. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا، قول فصل وحكم عدل، سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها.

عن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه قال: وجد على بن أبى طالب درعا له عند يهودى التقطها فعرفها، فقال: درعى سقطت عن جمل لى أورق، فقال اليهودى: درعى وفى يدى، ثم قال له اليهودى: بينى وبينك قاضى المسلمين، فأتوا شريحا، فلما رأى عليا قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس على فيه ثم قال على: لو كان خصمى من المسلمين لساويته فى المجلس.

ثم قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين، قال: درعى سقطت عن جمل لى أورق والتقطها هذا اليهودى، فقال شريح: ما تقول يا يهودى، قال: درعى وفى يدى. فقال شريح: صدقت، والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لابد من شاهدين. فدعى قنبرا مولاه والحسين بن على وشهدا أنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها.

فقال على: ثكلتك أمك أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، قال: اللهم نعم، قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة، والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضى بين أهلها أربعين يوما، ثم قال لليهودى خذ الدرع.

فقال اليهودى: أمير المؤمنين جاء معى إلى قاضى المسلمين فقضى عليه ورضى، صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك إلتقطتها، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقال على: أما وقد أسلمت، الدرع لك وهذا الفرس لك. ثم لم يزل معه حتى قتل يوم صفين.

**من كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبى نعيم الأصبهانى.**

---

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أشهر من تولى القضاء فى الإسلام، ولاه عمر رضى الله عنه قضاء الكوفة وبقى فى منصبه ستين سنة، هو من اليمن دخل الإسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، أغلب الظن أنه لم يدرك رسول الله حيا فلم يحظ بشرف الصحبة، حدث عن كبار الصحابة، قال فيه على رضى الله عنه: هو أقضى العرب، عاش مائة وثمان سنين، توفى عام ٧٨ هـ.

# الصابون من مائتى عام

حـدث فـى مصر فى ذى القعدة سـنة ١٢٣١ للهجرة ما حصل فى هذه السـنة من شـحة الصابون وعدم وجوده بالأسـواق ومع السراحين، وهو شـىء لا يستغنى عنه الغنى ولا الفقير، وذلـك أن تجاره بوكالة الصابون زادوا فـى ثمنه محتجين بما عليهم من المغارم والرواتب لأهل الربع، فيأمر الكتخدا[1] فيه بأمر وبسـعر فيدعون الخسران وعدم الربح، وتكرر الحال المرة بعد المرة ويشـتكون من قلة المجلوب إلى أن سـعر رطله بستة وثلاثين نصفا فلم يرتضوا ذلك وبالغوا فى التشـكى، فطلب قوائمهم وعمل حسـابهم وزادهم خمسـة أنصاف فى كل رطل وحلف ألا يزيد على ذلك، وهم مصممون بدعوى الخسـران، فأرسل من أتباعه شخصا تركيا لمباشرة البيع وعدم الزيادة، فيأتى إلى الخان فى كل يوم يباشـر البيع على من يشـترى بذلك الثمن لأربابه ويمكـث مقدار سـاعتين من النهار ويغلق الحواصل ويدفـع البيع لثانى يوم، وفى ظرف هاتين السـاعتين تزدحم العسـكر على الشراء ولا يتمكن خلانهم من أهل البلد من أخذ شىء، وتخرج العسـكر فيبيعون من الذى اشـتروه على الناس بزيادة فاحشة فيأخذ الرطل بقرش ويبيعه على غيره بقرشين.

ورفع التشـكى إلى الكتخدا فأمر ببيعه عند باب زويلة فى السـبيلين المواجه أحدهما للباب والسبيل الذى أنشأته الست نفيسة المرادية عند الخان تجاه الجامع ليسهل على العامة تحصيله وشـراؤه، فلم يزداد الحال إلا عسـرا، وذلك أن البائع يجلس داخل السـبيل ويغلق عليه بابه ويتناول من خروق الشبابيك من المشترى الثمن ويناوله الصابون، فازدحمت طوائف العسكر على الشـراء ويتعلقون بأيديهم وأرجلهم على شبابيك السبيلين، والعامة أسفلهم لا يتمكنون من أخذ شىء، ويمنعون من يزاحمهم فيكون على السبيلين ضجة وصياح من الفريقين، فلا يسع ابن البلد الفقير المضطر إلا أن يشترى من العسكرى بما أحب وإلا رجع إلى منزله من غير شىء.

واسـتمر الحال على هذا المنوال أياما، وفى بعض الأحايين يكثر وجود الصابون بين أيدى الباعة بوسط السوق ولا تجد عليه مزاحمة، وأمام البائع كوم عظيم وهو ينتظر من يشترى، وذلك فى غالب الأسـواق، مثل الغورية والاشرفية وباب زويلة والبندقانيين، والجهات الخارجية ثم يصبحون فلا يوجد منه شىء، ويرجع الزحام على السبيلين كالأول.

**من كتاب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للجبرتى.**

---

(١) لفظ فارسى من كلمة كدخدا بمعنى نائب أو وكيل، واستخدم هذا اللفظ أثناء الحكم العثماني، فكان أولا يطلق على نائب الوالي، ثم أصبح يطلق على كل من يشغل وظيفة نائب لأى وظيفة أقل من الوالى مثل كتخدا خازندار وغيرها من الوظائف.

## سليمان وعامل الحجاج

كان يزيد بن أبى مسلم الثقفى مولى الحجاج بن يوسف الثقفى وكاتبه، وكان فيه كفاية ونهضة. وقدمه الحجاج بسبب ذلك. و لما حضرته الوفاة استخلفه بالعراق، وأقره الوليد بن عبد الملك. وقيل إن الوليد هو الذى ولاه بعد موت الحجاج. وقال الوليد: يوما مثلى ومثل الحجاج ويزيد بن أبى مسلم كرجل ضاع له درهم فوجد دينارا. قلت مثل فى هذا الحجاج بالدرهم ويزيد بالدينار، فلما مات الحجاج خلفه يزيد فكأنه وجد دينارا بعد ضياع الدرهم لما رأى من فضل يزيد وحسن عقله وبلاغة لسانه. ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد المذكور، واستحضره فرآه دميما كبير البطن قبيح الوجه، فقال: لعن الله من أشركك فى أمانته وحكمك فى دينه. فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل فإنك رأيتنى والأمور مدبرة عنى، ولو رأيتنى وهى مقبلة على لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت. فقال سليمان: قاتله الله ما أشد عقله وأعذب لسانه.

ثم قال سليمان: يا يزيد أترى صاحبك الحجاج يهوى بعد فى نار جهنم أم قد استقر فى قعرها؟ فقال: لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن الحجاج عاد عدوكم ووالى وليكم وبذل مهجته لكم، فهو فى يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد. فاجعله حيث أحببت. وفى رواية أخرى: يحشر بين اثنين أبيك وأخيك فضعهما حيث شئت.

قال سليمان: قاتله الله أوفى لصاحبه، إذا اصطنعت الرجال فلتصطنع مثل هذا. فقال بعض الحاضرين: اقتله يا أميرالمؤمنين. فقال يزيد: من هذا؟ قالوا فلان بن فلان. فقال: والله لقد بلغنى أن أمه ما كان يوراى شعرها أذنيها، فما تمالك سليمان أن ضحك. وأمر بتخليته. ثم كشف عنه سليمان فلم يجد له خيانة فى دينار ولا درهم، فهم باستكتابه. فقال له عمر بن عبد العزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحيى ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه. فاعلمه سليمان أنه لم يخن قط فى دينار ولا فى درهم. فأجابه عمر بأن إبليس لم يخن فيهما وقد أهلك هذا الخلق، فتركه سليمان.

**من كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان) لليافعى**

□□□

## مؤذن الخليفة المعتصم !

لم يكـن لأحد من خلفاء بنى العباس ما كان للمعتصم[1] من سياسـة وهيبة وعدل، ولم يملـك أحد مـا ملك من الغلمان الترك والذى يقال إن عددهم كان سـبعين ألفا. ولقد رقى كثيرين منهم فأوصلهم إلى الإمارة. وكان يردد دائما أن ليس ثمة من هم فى مستوى الأتراك من الخدمة.

حـدث رجـل فى عهد المعتصم قائـلا: كنت مؤذنا على مئذنة هذا المسـجد منذ ثلاثين سـنة، وأكسـب رزقى من الخياطة. لم أشـرب الخمر ولم أرتكب الزنا. أو أقترف الأعمال القبيحة قط، ومنذ ذلك الوقت وأنا أسكن هنا فى حى أحد الأمراء. وذات يوم صليت العصر وخرجت من المسـجد متجها إلى الدكان فإذا ذلك الأمير سـكران وممسـك بعباءة إمرأة شابة يدفعها عنوة وهى تصرخ وتقول: أيها المسـلمون أغيثونى فلست من هذا الصنف من النساء، إننى ابنة فلان وزوج فلان وبيتنا فى المكان الفلانى والناس كلهم يعرفوننى بالستر والصلاح. إن هذا التركى يجرنى عنوة لقضاء مآربة الدنيئة. لقد أقسـم زوجى أنه سيطلقنى إن تغيبت عن المنزل ليلة.

لقد كانت تبكى وتستغيث دون أن يهب لنجدتها أحد لأن التركى كان عظيما ومهيمنا، وكان لـه عشـرة آلاف فارس ولم يكن أحد يجـرؤ أن يكلمه حرفا، غير أننى صرخت لمدة قصـيرة لكـن دون جدوى إذ مضى بالمرأة إلى قصره وثارت فى نفسـى لذلك التعدى والظلم الحمية الدينية فذهبت وجمعت شيوخ الحى ثم مضينا جميعا إلى قصره فاعترضنا وصرخنا بأعلى أصواتنا. ألم يبق ببغداد مسـلم حتى تسـاق بها امرأة من الشـارع كرها على سمع الخليفـة وبصره لارتكاب الفاحشـة معها. إن تترك المـرأة فبها ونعمت وإلا فها نحن أولا ماضون الى بلاط المعتصم نشكوك إليه.

ولما سمع الأمير صراخنا خرج إلينا مع غلمانه فأوجعنا ضربا وكسـروا أيدينا وارجلنا.

---

(١) هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور، الخليفة الثامن من خلفاء بنى العباس (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون عام ٢١٨هـ. بنى مدينة سامراء الشهيرة عام ٢٢١هـ واتخذها عاصمة لملكه، أشهر فتوحاته مدينة عامورية الرومية عام ٢٢٣هـ وكان سبب ذلك استغاثة امرأة مسلمة على حدود بلاد الروم بالمعتصم حيث قالت كلمتها الشهيرة (وامعتصماه) فلما بلغه ذلك قال: لبيك يا أختاه، وذهب على رأس جيش فتح به عمورية وأنقذ المرأة. هو أول من استعان بالترك بعد غلبة العنصر الفارسى عند من سبقه من خلفاء بنى العباس. توفى عام ٢٢٧ هـ.

ولما رأينا الأمر على هذا الحال لذنا بالفرار وتفرقنا وكان الوقت عشاء. فأديت الصلاة وبعد مدة ارتديت ثياب نومي واضطجعت على الأرض. لكنه لم تغمض لى عين لشدة ما كنت فيه من إعياء وغيرة. واستغرقت فى تفكير عميق إلى أن مضى من الليل نصفه. وقلت لنفسى: إن كان يريد فسادا فقد حقق بغيته. الأمر الذى لا يمكن تلافيه وهذا أسوأ من قسم زوج المرأة عليها بالطلاق إن هى تغيبت عن البيت ليلا. لكننى سمعت أن المدمنين ينامون حين يأخذ منهم السكر مأخذه وأنهم حين يقبعون لا يدركون كم مضى من الليل. حينئذ صممت على أن أصعد إلى المئذنة وأؤذن للصلاة فلربما يظن التركى حين سماع الأذان أن النهار قد وضح فيطلق سراح المرأة ويخرجها من قصره ولابد لها بعد ذلك أن تمر بالقرب من باب المسجد. أما أنا فسأنزل بعد الأذان حالا وأقف بالباب فى انتظارها لأوصلها إلى بيت زوجها حتى لا تدفع المسكينة طلاقها وخراب بيتها لما حدث.

ونفذت ما فكرت به فصعدت المئذنة وأذنت للصلاة وأمير المؤمنين المعتصم لم ينم، فلما سمع الآذان فى غير وقته غضب غضبا شديدا وقال: إن من يؤذن فى نصف الليل لمفسد لأن كل من يسمع الآذان يظن أن الفجر قد طلع. فإذا ما خرج من بيته يبتليه العسس. وأمر أحد خدمه أن اذهب وقل لحاجب الباب إننى (أى المعتصم) أريدك أن تذهب الآن وتحضر المؤذن الذى رفع الآذان فى نصف الليل لأعاقبه عقابا شديدا حتى لا يرفع أى مؤذن الآذان فى غير موعده بعد ذلك.

وعلى حين كنت واقفا بباب المسجد أنتظر المرأة، إذا الحاجب يتهادى وبيده سراج، فلما رآنى قال: أأنت الذى أذن للصلاة، قلت: بلى، قال: لماذا أذنت فى غير وقت؟ لقد استنكره الخليفة جدا وهو لهذا ساخط عليك كثيرا. فأرسلنى فى طلبك لتأديبك. قلت: الحكم ما يراه الخليفة. إلا أن شخصا سيىء الخلق حملنى على أن أرفع الآذان فى غير وقته. قال: فمن يكون هذا؟ قلت: هو الذى لا يخشى الله ولا يخاف الخليفة. قال: ومن ذا الذى كانت له الجرأة على ذلك؟ قلت: هذا أمر لا أبوح به لغير أمير المؤمنين. أما إن كنت أذنت متعمدا لشيء فى نفسى فإن أية عقوبة يقض بها الخليفة ستكون قليلة بحقى.

قال: بسم الله هيا بنا إلى الخليفة. ولما وصلنا إلى مدخل القصر كان الخادم فى انتظارنا، فقال الحاجب للخادم كل ما قلته له وهرع الخادم إلى المعتصم وأخبره. فقال له: إذهب واحضره. وأخذنى الخادم إلى المعتصم، فقال لى: لماذا رفعت الآذان فى غير أوانه؟ وسردت عليه قصة التركى مع المرأة من أولها إلى آخرها. فلما سمعها طار صوابه وقال للخادم: قل

لحاجب الباب امض الآن بمائة فارس إلى قصر الأمير فلان وقل له الخليفة يستدعيك، وحين تقبض عليه أخرج المرأة التى كان ساقها أمس عنوة إلى قصره وخذها إلى بيتها ثم ادع زوجها إلى الباب وقل له أن المعتصم يقرؤك السلام ويتشفع لديك فى أمر هذه المرأة ويقول لم يكن لها أى ذنب فيما حدث فعليك أن تحسن معاملتها الآن أكثر من أى وقت مضى، ثم عد إلى بسرعة. أما عن الشيخ فقال لى ابق هنا قليلا.

وبعد فترة جئ بالأمير إلى المعتصم الذى ما إن وقعت عيناه عليه حتى قال له: يا كذا وكذا ما الذى رأيت من عدم حميتى وغيرتى على الدين الإسلامى أو من ظلمى للناس وأى خلل طرأ على الإسلام والمسلمين فى عهدى؟ ألست أنا الذى خرج من أجل مسلم وقع أسيرا بأيدى الروم من بغداد إلى بلادهم فكسرت جيوشهم وهزمت قيصرهم ودمرت بلادهم على مدى ست سنوات. أولست أنا الذى هدم القسطنطينية وأحرقها وبنى فيها المسجد الجامع ولم يعد قبل أن يخلص ذلك الرجل من قيصرهم، إن الذئب والشاة يشربان فى هذه الأيام من مورد واحد لعدلى والخوف منى، فكيف تجرؤ على سوق امرأة ببغداد إلى قصرك عنوة وترتكب معها الفاحشة، وتعتدى على من نهوك وأمروك بالمعروف ضربا؟! ثم أمر أن أحضروا جولقا وضعوه (أى الأمير التركى) فيه ثم أحكموا ربطه، ففعلوا. بعد ذلك أمر بمدقين مما يفتت به الجص وقال: ليقف واحد فى هذا الطرف وواحد فى الطرف الآخر ثم اضرباه إلى أن يصير إربا إربا، وشرع الرجلان يضربانه فورا إلى أن فتتاه تفتيتا وقالا: يا أمير المؤمنين إن عظامه دقت دقا، فأمر أن يحملا الجولق مثلما هو ويلقيانه فى نهر دجلة، بعد ذلك قال المعتصم لى: يا شيخ اعلم أن من لا يخاف الله لا يخافنى أيضا، فى حين أن من يخافه عز وجل لا يقدم على عمل يعاقب به فى الدنيا والآخرة، أما هذا الرجل فقد لاقى جزاءه لأنه فعل ما لا يفعل، وأما أنت فإننى آمرك من الآن بأن ترفع الآذان فى غير وقته كلما علمت بظلم شخص لآخر أو إيذائه إياه دونما حق أو لاستخفاف يبدو منه بالشرع لأطلبك حين سماعه واستفسر عن الأمر وأعاقب المذنب بمثل ما عاقبت به هذا الكلب، وإن يكن ابنى أو أخى، ثم أمر لى بصلة وصرفنى.

**من كتاب (سياستنامه) لنظام الملك الطوسى.**

# يوم القيامة بعد غد !

فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى الحجة آخر سنة ١١٤٧ للهجرة، أشيع فى الناس بمصر[1] أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر من ذى الحجة، وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة، حتى فى القرى والأرياف، وودع الناس بعضهم بعضا، ويقول الإنسان لرفيقه: بقى من عمرنا يومان، وخرج الكثير من الناس والمخاليع بالغيطان والمتنزهات ويقول بعضهم لبعض: دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل يوم القيامة. وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى البحر، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى.

واعتقدوا ذلك ووقع صدقه فى نفوسهم، ومن قال لهم خلاف ذلك، أو قال هذا كذب لا يلتفتون لقوله ويقولون: هذا صحيح وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى، وهما يعرفان فى الجفور والزايرجات (التنجيم) ولا يكذبان فى شئ يقولانه، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج يوم كذا، وفلان ذهب إلى الأمير الفلانى وأخبره بذلك وقال له إحبسنى إلى يوم الجمعة، وإن لم تقم القيامة فاقتلنى، ونحو ذلك من وساوسهم، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين المذكور فلم يقع شىء.

ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فانتقلوا يقولون: فلان العالم قال إن سيدى أحمد البدوى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم، فيقول الآخر: اللهم انفعنا بهم، فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظا، ونحو ذلك من الهذيانات.

**من كتاب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للجبرتى**

□□□

(١) نورد هذه القصة التى ذكرها الجبرتى فى كتابه للإشارة إلى الجهل الذى تفشى فى العوام فى تلك الفترة حتى وصل بهم الأمر إلى تصديق الخرافات على هذا النحو.

# من مناظرات الباقلانى

وجه عضد الدولة[1] قاضى العراق أبو بكر الباقلانى[2] سفيرا إلى ملك الروم بالقسطنطينية، فجـرت له بين يديه مع بطارقته ونبلاء ملته مناظرات ومحاورات. قال القاضى: سـألنى الملك فى مجلسـه فقال: ما تقولون فى المسـيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام؟ قلت روح الله وكلمته وعبده ونبيه ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: « كن فيكون! » وتلوت عليه النص. فقال: يا مسـلم! تقولون: المسـيح عبد؟ فقلت: نعم ؟ كذا نقول وبه ندين! قال: ولا تقولون إنه ابن الله ؟ قلت « معاذ الله! ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله» و«إنكم لتقولون قولا عظيما». فإذا جعلتم المسـيح ابن الله، فمن كان أبوه، وأخوه، وجده وخاله، وعمه؟ وعددت عليه الأقارب.

فتحير وقال: يا مسلم! العبد يخلق ويحيى ويميت ويبرئ الأكمة والأبرص؟ فقلت: لا يقـدر العبد على ذلك. وإنما ذلك كله من فضل الله تعالى! قال: وكيف يكون المسـيح عبد الله، وخلقا من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟ قلت: معاذ الله! ما أحيى المسـيح الموتى، ولا أبرأ الأكمة والأبرص! فتحير وقل صبره، وقال: يا مسلم ! تنكر هذا، مع اشتهاره فى الخلق، وأخذ الناس له بالقبول!

فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم؛ وإنما هو شـىء يفعله الله تعالى على أيديهم، تصديقا لهم، يجرى مجرى الشـهادة! فقال: قد حضر عندى جماعة من أولى دينكم والمشهورين فيكم وقالوا إن ذلك فى كتابكم.

فقلت: فى كتابنا إن ذلك كله بإذن الله تعالى! وتلوت عليه منصوص القرآن فى المسيح

---

(١) هو عضد الدولة ثانى ملوك بنى بويه، برز عضد الدولة بعد وفاة عمه عماد الدولة، حيث خلفه فى حكم أصفهان وشيراز وبلاد الكرج، لما توفى أبيه ركن الدولة آلت رئاسة البيت البويهى إلى عضد الدولة وانفتح الباب أمامه لانتزاع العراق من ابن عمه بختيار فزحف إليه وتمكن من القضاء عليه وقتله عام ٣٦٧هـ/٩٧٨م واستولى على ما تحت يديه واستقر فى بغداد وأصبحت عاصمة الخلافة عاصمة لبنى بويه، وخطب له على منابرها إلى جانب الخليفة العباسي. فكان أول من خطب له بعد الخلفاء، من أشهر الوافدين عليه المتنبى شاعر العصر، توفى عام ٣٧٢هـ/٩٨٣م.

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضى أبو بكر الباقلانى المالكى (٣٣٨-٤٠٣هـ/٩٥٠-١٠١٣م) فقيه بارع ومتكلم حجة، إنتهت إليه رئاسة المالكية بالعراق فى عصره. كان قائدا فى الحرب التى دارت رحاها بين الدولتين العباسية والفاطمية، اشتهر بمناظراته مع الرافضة وأهل الكتاب. قال عنه ابن كثير: كان الباقلانى لا ينام حتى يكتب عشرين ورقة فى كل ليلة مدة طويلة من عمره، توفى ببغداد عام ٤٠٣ هـ.

«بإذني» وقلت: إنما فعل المسيح ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح. ولو كان المسيح يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته وقوته، لجاز أن يقال إن موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته! وليست معجزات الأنبياء عليهم السلام من ذاتهم دون إرادة الخالق! فلما لم يجز هذا، لم يجز أن تسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح، للمسيح.

وذكر ابن حيان، عمن حدثه أن الطاغية وعد القاضي أبا بكر بالاجتماع معه في محفل من محافل النصرانية، ليوم سماه.

فحضر أبو بكر، وقد احتفل المجلس وبولغ في زينته. فأدناه الملك، وألطف سؤاله، وأجلسه على كرسي دون سريره بقليل، والملك في أبهته، وخاصته ورجال مملكته على مراتبهم. وجاء البطرك، قيم ديانتهم، آخر الناس، وحوله أتباعه يتلون الأناجيل ويبخرون بالعود الرطب، في زي حسن.

فلما توسط المجلس، قام الملك ورجاله، تعظيما له؛ فقضوا حقه، ومسحوا أعطافه. وأجلسه إلى جنبه، وأقبل على القاضي أبي بكر، فقال له: يا فقيه! البطرك قيم الديانة، وولي النحلة! فسلم القاضي عليه أحفل سلام، وسأله أحفى سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد؟

فعظم قوله هذا عليه وعلى جميعهم وطبقوا على وجوههم، وأنكروا قول أبي بكر عليه. فقال: يا هؤلاء! تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتربون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم عز وجهه! فتضيفون إليه ذلك سدة لهذا الرأي! ما أبين غلطه!

فسقط في أيديهم، ولم يردوا جوابا، وتداخلتهم له هيبة عظيمة، وانكسروا. ثم قال الملك للبطرك: ما ترى في أمر هذا الرجل؟ قال: تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه، وتخرج هذا العراقي عن بلدك، من يومك إن قدرت؛ وإلا لم تأمن الفتنة على النصرانية منه.

ففعل الملك ذلك، وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه، وعجل تسريح الرسول. وبعث معه عدة من أسرى المسلمين، ووكل به من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه. قال غيره: وكان سير القاضي إلى ملك الروم سنة نيف وثمانين وثلاثمائة.

**من كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهي.**

## المأمون يشدد فى الغناء

وكان المأمون[1] قد حرم الغناء وشدد فيه فلقى على بن هشام، إسحاق بن إبراهيم الموصلى (المغنى الشهير) على الجسر، فقال إسحاق لعلى بكلام يخفيه: قد زارتنى اليوم فلانة، وهى أطيب الناس غناء، فبحياتى إلا كنت اليوم عندى. فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلى يسمع كلامهما فمضى من وقته، فلبس ثيابا حسنة؛ واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجها ولجامها، فركبها وأتى باب على بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة، فقال للحاجب: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق بن إبراهيم بالباب؛ فدخل الحاجب وخرج مسرعا وقال: ادخل جعلت فداك.

فدخل على على فرحب به، فقال له: يا سيدى يقول لك أخوك: تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابى وأوافيه، فاستوى على دابته ووافى منزل إسحاق؛ فقال للحاجب: عرف الأمير أنى رسول على بن هشام؛ فدخل الحاجب وخرج فقال: ادخل ! جعلنى الله فداك؛ فدخل فسلم وقال: أخوك يقرؤك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب. وقد غيرت ثيابى وتأهبت للمسير فما ترى؟ فقال: قل له يا سيدى قتلتنا جوعا، فبحياتى إلا ما حضرت. فرجع إلى باب على وقال للحاجب: تعرفه أن الأمير أمرنى ألا أبرح أو يجىء معى.

فغير على بن هشام ثيابه، وركب دابته، وتبعه الطفيلى حتى نزل بباب إسحاق بن إبراهيم، ونزل الطفيلى معه، ودخلا جميعا فسلما وجلسا، وجىء بالطعام فأكلوا، وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلى، وعلى لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب، وخرجت جارية من أحسن الناس وجها وزيا، فجلست وأتيت بعود،

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، ولد فى ليلة موت جده الهادى واستخلاف أبيه الرشيد، كانت أمه من الفرس البرامكة، سمى عصره بعصر العلم حيث كان محبا للعلم وأصحابه فتبحر فى علوم الفلسفة والقرآن والمذاهب، قامت فى عهده حركة الترجمة للكتب القديمة إلى العربية فى بيت الحكمة الذى بناه الرشيد، وكانت هذه الحركة أساسا للنهضة العلمية الكبيرة الذى شهدها العالم الإسلامى فى القرون الثلاثة اللاحقة، اتخذ المأمون معظم أعوانه من الفرس، عهد بولاية العهد إلى على بن موسى الرضا الحفيد السادس للرسول صلى الله عليه وسلم فنقل بذلك الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوي، غير أن هذه الحركة لم تكتمل بموت على بن موسى مسموما عام ٢٠٣هـ. قامت فى عهده العديد من الثورات استطاع القضاء عليها جميعا، توفى عام ٢١٨ هـ.

فغنت أحسن غناء، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر، وأخذ الطفيلى البول حتى كاد يأتى على ثيابه فصبر جهده، فلما عيل صبره قام فدخل الخلاء.

فقال على لإسحاق: يا سيدى، ما أخف روح هذا الفتى وأحل نوادره! فمن أى وقع لك؟ قال أوليس هو صاحبك؟! قال: لا وحياتك ولا رأيته قبل يومى هذا، قال: فإنه جاءنى برسالتك وقص قصته، وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه، وقال: طفيلى يستجرىء على وعلى النظر إلى حرمى والدخول إلى دارى! يا غلمان: السياط والعقابين، المقارع والجلادين.

فقامت فى الدار جلبة، وأحضروا جميع ذلك، والطفيلى يسمع وهو فى الخلاء، ثم إنه خرج رافعا ثيابه غير مكترث بما فعلوه، وهو مقبل على تكة لباسه يشدها، ويتمشى فى صحن الدار وهو يقول: جعلت فداك! إيش بى من جهدك! فهل عرفتنى مع هذا كله؟ فقال إسحاق: ومن أنت؟ فقال: أنا صاحب خبر أمير المؤمنين، وعينه على سره، والله لولا تحرمى بطعامك وممالحتى لتركتكما فى عمى من أمرى، حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك! فقام إليه إسحاق وعلى يسكتانه وقالا له: يا هذا، إننا لم نعرفك ولم نعلم حالك، ولك الفضل علينا، وأنت المحسن المجمل إلينا، ولكن تمم إحسانك بسترك ما نحن عليه.

ثم قال إسحاق: يا غلام، الخلع! فأتى بثياب فاخرة فصبت عليه، وتقدم بإسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن، ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف، فأتبعه إسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى. فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المأمون. فقال: يا على، كيف كان خبرك أمس؟ على حسب ما يجرى السؤال عنه فتغير لونه، ولم يشك فى أن الحديث رفع إليه، فأكب على البساط يقبله.

وقال: يا أمير المؤمنين، العفو، يا أمير المؤمنين، الأمان. قال: لك الأمان. فأخبره بالقصة من أولها إلى أخرها. فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه، وقال: ما فى الدنيا أملح من هذا. ووجه خلف إسحاق، فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر على بن هشام والمأمون يضحك. ثم قال: يا إسحاق، بحياتى أطلب الرجل وجئنى به، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فكان أحد ندماء المأمون.

**من كتاب (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) للحصرى.**

## تيمورلنك ومسجد سمرقند

وكان تيمور[1] قد رأى فى الهند جامعا، للبصير مرتعا وللبصر رائعا، عرشه فى حسن بنائه ونقشه، من الرخام الأبيض كبساط فرشه، فأعجبه شكله، وأراد أن يبنى فى سمرقند مثله، ففرز لذلك مكان فى فرز، ورسم أن يبنى له جامع على الطرز، وأن يقطع له أحجار من المرمر الصلد، وفوض أمره إلى رجل يقال محمد جلد، أحد أعوانه ومباشرى ديوانه، فاجتهد فى بنيانه، وتشييد أركانه، واستقصى جهده فى تحسينه، من تأسيسه وتركيبه وترتيبه وتزيينه، وأعلى له أربع مآذن، وباهى فى أئمة البنائين والأستاذين، وظن أن لو كان فى ذلك أحد غيره، لما قدر أن يصنع صنعه، ويسير سيره، وأن تيمور سيشكر له صنيعه، وينزله عنده بذلك منزلة رفيعة.

فلما آب من سفرته، وتفقد ما حدث فى غيبته، توجه إلى الجامع لينظر إليه فبمجرد ما وقع نظره عليه، أمر بمحمد جلد فألقوه على وجهه وربطوا رجليه، ولا زالوا يجرونه، وعلى وجهه يسحبونه، حتى وضعوه على تلك الحال، واستولى على ماله من أهل وولد ومال، وأسباب ذلك متعددة، ومعظمها أن الملكة الكبرى، امرأة تيمور العظمى، أمرت ببناء مدرسة، واتفق المعمارية وأهل الهندسة أن تكون فى مواضع، مقابلة لبناء هذا الجامع، فشيدوا أركانها وسددوا بنيانها، وعلوا على الجامع طباقها وحيطانها، فكانت أرسخ منه تمكينا، وأشمخ منه عرنينا.

وتيمور كان نمرى الطبع، أسدى الوضع، ما تكبر عليه رأس إلا شدخه، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه، وكذلك كل ما أضيف إليه، أو عول فى النسبة عليه فلما رأى قامت تلك المدرسة طالت، وعلى قد جامعه الجتر ترفعت واستطالت، نغل صدره غيظا واشتعل، وفعل مع مباشر ذلك ما فعل، فلم يصادفه فيما أمله سعد، وهذه الحكاية مقدمة لما أذكره بعد نكتة.

---

(١) هو تيمورلنك، قائد مغولى، ولد عام ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٦م جنوبى سمرقند (أوزباكستان الحالية)، وهو من سلالة جانكيزخان المغولى إلا إنه اعتنق الاسلام. حاول تيمورلنك إعادة مجد المغول، بدأ بالتوسع من سمرقند فنجح فى الاستيلاء على خوارزم عام ١٣٧٩م ثم خراسان، وباكستان وأفغانستان ثم أذربيجان، واستولى على فارس ثم أصفهان التى بلغ عدد القتلى فيها من جراء غزوه حوالى سبعين ألفا، وبعد إخضاعه فارس وإيران اتجه إلى العراق فخربها ثم دمر بغداد عن آخرها وقتل بها أكثر من مائة ألف مسلم، وما لبث أن مات أثناء غزوه للصين عام ١٤٠٥م، بعد أن دانت له البلاد من دلهى إلى دمشق، بعد مماته ذهبت إمبراطوريته التى بناها على القتل والتدمير أدراج الرياح، وقسم ما بقى منه بين أولاده.

كان هـذا الجامـع كصاحبه، أحاطت أوزار الأحجار بجوانبـه، وتثاقلت على غواربه ومناكبه، ودقت عنقه، طاقته عن حملها ورقت، وتلا لسـان سـقفه «إذا السـماء انشقت» وما أمكن تيمور الاشـتغال بهدمه ثم إحكامه، ونقض بنائه واستئناف إبرامه، فطوى ثوب عمارته على غرة، واستبقى خشب أخشبه على وهنة وكسره. لكنه أمر خاصته وذويه، أن يجتمعوا ويجمعوا فيه، واسـتمر ذلك فى حياته وبعـد وفاته، فكان إذا اجتمع الناس فيه للصـلاة، يرتقبـون من تلك الحجارة ما يهبط من خشـية الله، وصار ملك الجبال فى تلك المحلة يتلو «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» ففى بعض الأحيان، وقد غص بالناس ذلك المكان، وأخذ كل منهم حذره، سقط من حجارته من أعلاه شذرة، ففر كل من كان جاثما، وانفضوا إلى الأبواب وتركوا الإمام قائما، وكان من جملتهم الله داد، أحد الأكفاء والأنداد، فلما اطلعوا على حقيقة الخبر، تراجعوا وزال عنهم الخور، فلما قضوا الفرض، وانتشـروا فى الأرض، قال لى الله داد، وكان من الدهاة ذوى الكياد، والأذكياء النقاد له حوالى كعبة المخازى، مائة شـوط وألف طوف ينبغى أن يلقب هذا الجامع بمسجد الحرام والصلاة فيه صلاة الخوف، وقال لى أيضا ألله داد، وقد فهم معنى هذا الإنشاد، وينبغى أن ينشد، فى شأن هذا المعبد، ويكون رقم طرازه، ونقش صدره ومجازه، قول الشاعر:

**سمعتـك تبنـى مسجدا مـن جناية ... أنـت بحمـد الله غيـر موفقِ**
**كمُطعمـة الأيتـام من كد فرجـها ... لك الـويل لا تـزنى ولا تتصـدقِ**

**من كتاب (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) لابن عرب شاه**

□□□

## من عجائب الشدة المستنصرية!

وقع أيام المستنصر[1] الغلاء الذى فحش أمره وشنع ذكره. وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة. واستيلاء الأمراء على الدولة. واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل. وكان ابتداء ذلك فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة. فنزع السعر وتزايد الغلاء. وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة. وشمل الخوف. وخيفت السبل برا وبحرا. وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة (الحراسة) الكثيرة وركوب الغرر(الخطر). واستولى الجوع فعدم القوت. حتى بيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا. وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا. وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب. فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا.

وتحرز (احتاط) الناس. فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب. فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه. ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل منا فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره. وصار يجلس على حصير. وتعطلت دواوينه. وذهب وقاره. وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن (الجوع..الجوع). تردن المسير إلى العراق. فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا.

واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه. وجاءه الوزير يوما على بغلته فأكلتها العامة. فشتنق طائفة منهم. فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت. وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه فى كل يوم بقعب

---

(١) هو أبو تميم محمد بن الظاهر المعروف بالمستنصر بالله بن على الظاهر لإعزاز دين الله (٤٢٨-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م). هو الخليفة الفاطمى الثامن والإمام الثامن عشر فى سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية. اعتلى عرش الدولة الفاطمية وهو دون الثامنة. وصلت الدولة حين اعتلائه العرش إلى أقصى اتساع وقوة لها. لكنها ما لبثت أن وصلت فى عهده إلى الذبول والشحوب بفعل المجاعات والقحط المتواصل فأخذت دولة المستنصر فى التداعى والسقوط، وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، وتداعى حكم المستنصر فى بلاد الشام. ولم ينقذ الدولة الفاطمية آنذاك إلا بدر الجمالى الوزير الفاطمى الجديد ذو الأتباع والنفوذ حيث استطاع العودة بالدولة لسابق عهدها، وبدأ عصرا جديدا فى الدولة تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف اصطلح على تسميته (عصر نفوذ الوزراء). توفى المستنصر بالله عام (٤٩٧هـ/١٠٩٤م) بعد حكم دام نحو ستين عاما.

(القـدح الكبير) من فتيت، من جملة ما كان لها مـن البر والصدقات فى تلك الغلوة حتى أنفقت مالها كله وكان يجل عن الإحصاء فى سبيل البر. لم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به عليه، وهو مرة واحدة فى اليوم والليلة.

ومـن غريـب ما وقع، أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقدا لها قيمته ألف دينار، وعرضتـه على جماعة فى أن يعطوها به دقيقا، وكل يعتذر إليها ويدفعها عن نفسـه، إلى أن يرجمهـا بعـض الناس، وباعها بـه تلبس دقيق بمصر، وكانت تسـكن بالقاهرة، فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهاية فى الطريق.فلما وصلت إلى باب زويلة تسـلمته مـن الحماة له ومشـت قليلا، فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهبـا، فأخذت هى أيضا مع النـاس من الدقيق ملئ يديها لم ينبها غيره، ثم عجنته وشـوته، فلما صار قرصة أخذتها معها وتوصلت إلى أحد أبواب القصر ووقفت على مكان مرتفع، ورفعت القرصة على يديها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صوتها:

( يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المسـتنصر الذى أسـعد الله النـاس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار).

**من كتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) للمقريزى.**

□□□

## بين المقوقس وابن الصامت

بعث عمرو بن العاص فى فتح مصر[1] عشرة نفر إلى المقوقس صاحب مصر، كان أحدهم عبادة بن الصامت[2]، وأمره أن يكون متكلم القوم، وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحو عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني.

فقالوا جميعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا بألا نخالف رأيه وقوله.

قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ وإنما ينبغى أن يكون دونكم. قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا، وليس ينكر السواد فينا. فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمنى برفق، فإنى أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك على ازددت لذلك هيبة.

فتقدم إليه عبادة فقال:

قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى، وأنا قد وليت وأدبر شبابى، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا، وكذلك أصحابى، وذلك إنما رغبتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبة دنيا ولا طلبا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا، وما يبالى أحدنا من الدنيا أكله يسد بها جوعته لليله ونهاره وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة

(١) كان الفتح الإسلامى لمصر فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام ٢٠هـ/٦٤١م، بواسطة القائد المسلم عمرو بن العاص رضى الله عنه، بعد أن تم للمسلمين ضم فلسطين وانتزاعها من الرومان. وقد تم لعمرو بن العاص فتح مصر بسقوط الإسكندرية عام ٢١ للهجرة.

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجى الأنصارى، من كبار صحابة النبى صلى الله عليه وسلم ومن السابقين الأولين للإسلام، شهد بيعتى العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرا وأحدا والخندق وباقى غزوات النبى. روى حوالى مائة وواحد وثمانون حديثا، كان أول من ولى قضاء فلسطين فى عهد عمر رضى الله عنه، زوجته هى خولة بنت ثعلبة التى أنزل الله فيها صدر سورة المجادلة، توفى سنة ٣٤ هـ عن عمر يناهز الإثنين وسبعين عاما، دفن بالقدس الشريف.

الله، واقتصر على هذا الذى بيده، ويبلغه ما كان فى الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء فى الآخرة، وذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله فى رضا ربه وجهاده عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندى من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمرى ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

فقال عبادة بن الصامت:

يا هذا، لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقا، فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، إن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وما من شىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الإجتهاد منا، والله عز وجل قال لنا فى كتابه ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[1].

وما منا إلا ويدعو به صباحا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا، وأما قولك إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن فى أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه،

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة

فانظـر الذى تريـد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلهـا منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث. فاختر أيها شـئت، ولا تطمع نفسـك فى الباطل. بذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا:

إما أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته. أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا. وكان أخانا فى دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سـعدتم فى الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شـئ نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شـىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسـيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذى ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقـال المقوقـس له: هذا ما لا يكون أبدا، ما تريدون إلا أن تتخذونا نكون لكم عبيدا ما كانـت الدنيـا. فقال عبادة بن الصامت: هو ذلك فاختر ما شـئت. فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب هذه السـماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم. فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه فقال: قد فرغ القوم، فماذا ترون؟

فقالـوا: أويرضـى أحد بهذا الذل. أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يكون أبـدا، أن نترك دين المسـيح بـن مريم وندخل فى دين غيره لا نعرفـه، وأما ما أرادوا أن يسـبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسـر من ذلك، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا.

فقـال المقوقـس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجـع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكـم هـذه ما تمنيتم وتنصرفون. فقام عبادة وأصحابه. فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين. فقالوا: وأى خصلة نجيبهم إليها؟

إذا أخبركـم، أما دخولكم فى غـير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقـووا عليهم ولن تصـبروا صبرهم، ولابد من الثالثة. قالوا: أفنكـون لهم عبيدا قال: نعم

تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا، أنتم وأهلوكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا، وأمروا فقطع الجسر من الفسطاط، وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثيره، فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من فى القصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر.

**من كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكم.**

□□□

# علمه الذى قتلته من أجله !

فى سنة ٢٧ من الهجرة أمر أمير المؤمنين عثمان (ثالث الخلفاء ٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م)، عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى[1] بغزو أفريقية. فخرج عبد الله من مصر فى عشرين ألف إلى إفريقية وصاحبها بطريق يقال له جرجير وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة. فبعث عبد الله السرايا فى آفاق إفريقية فغنموا فى كل وجه، والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار فى موضع يعرف بسبيطلة، وكان جرجير فى مائة وعشرين ألفا فضاق المسلمون فى أمرهم واختلفوا على لين سعد فى الرأى. فدخل فسطاطه (خيمته) مفكرا فى الأمر.

فلما رأى جرجير خيل العرب اشتد رعبه وأهمته نفسه فأخرج ديدبانه (حارسه)، وصد فيه يشرف على العساكر ويرى القتال. وأمر ابنته فصعدت الديدبان وسفرت عن وجهها، وكان عدة خدمها اللائى صعدن الديدبان أربعين جارية فى الحلى والحلل من أجمل ما يكون. ثم قدم كراديسه كردوسا كردوسا وهو تحت الديدبان ثم قال لهم «أتعرفون هذه؟» فقالوا «نعم هذه سيدتنا. ابنة الملك وهؤلاء خدمها» فقال لهم «وحق المسيح ودين النصرانية لئن قتل رجل منكم أمير العرب عبد الله بن سعد لأزوجه ابنتى هذه، وأعطيه ما معها من الجوارى والنعمة. وأنزله المنزلة التى لا يطمع فيها أحد عندى» وما زال ذلك من قوله حتى مر على المسامع خيله ورجله فحرض بذلك تحريضا شديدا.

وإن عبد الله بن سعد لما انتهى إليه ما فعل جرجير وما كان من قوله نادى فى عسكره فاجتمعوا، فأخبرهم بالذى كان من جرجير ثم قال «وحق النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - لا قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته ومن معها» ثم زحف المسلمون فالتقى الجمعان. واستعر القتال واشتعلت نار الحرب. والمسلمون قليل والمشركين فى عشرين ومائة ألف. وأشكل الأمر على ابن سعد ودخل فسطاطه مفكرا فى الأمر.

(١) هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح بن الحارث العامرى القرشي، أخو عثمان بن عفان فى الرضاعة. أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتد، وهو أحد الأربعة الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهم يوم فتح مكة فتشفع له عثمان عند النبى فقبل النبى شفاعته وعفا عنه فأسلم وحسن إسلامه. أصبح من قادة جيوش الفتح الإسلامى فى عهد عثمان، تولى إمارة مصر عام ٢٧ هـ وخلالها قام بفتوحات فى النوبة والسودان، تولى بناء وقيادة الأسطول الإسلامى فى معركة ذات الصوارى الشهيرة التى انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين وأغرقوا لهم أكثر من تسعمائة سفينة، غزا إفريقية عدة مرات فى عهد عثمان حتى بلغ تونس وفتح مدينة قرطاجنة التونسية. توفى عام ٣٧ هـ.

قال عبد الله بن الزبير: فرأيت عورة من جرجير والناس على مصافهم، رأيته على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعا عنهم، معه جاريتان له تظلانه من الشمس بريش الطواويس، فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فطلبت الإذن عليه، فقال له حاجبه «دعه فإنه يفكر في شأنكم ولو اتجه له رأى لدعا بالناس» فقلت «إني محتاج إلى مذاكرته» فقال له «أمر في أن أحبس الناس عنه، حتى يدعونى» قال: فدرت حتى كنت من وراء الفسطاط فرأى وجهى فأومأ إلى أن تعال، فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه فقال «ما جاء بك يا ابن الزبير؟» فقلت «رأيت عورة من عدونا. فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا، وخشيت الفوت» فقام من فوره وخرج حتى رأى ما رأيت فقال «أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم» فتسرع إلى جماعة اخترت منها ثلاثين فارسا فقلت «إني حامل فاصرفوا عن ظهرى من أرادنى فأنى سأكفيكم ما أمامى إن شاء الله».

قال عبد الله: فحملت فى الوجه الذى هو فيه، وذب عنى الناس الذين انتدبوا معى واتبعونى حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بينى وبينهم، فوالله ما حسب إلا أنى رسول إليه، حتى رأى ما بى من أثر السلاح فقدر أنى هارب إليه فلما أدركته، طعنته، فسقط: فرميت نفسى عليه وألقت جارياته عليه أنفسهما فقطعت يد إحداهما، وأجهزت عليه، ورفعت رأسه على رمحى، وحال أصحابه وحمل المسلمون فى ناحيتى وكبروا، فانهزم الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وثارت الكمائن من كل جهة ومكان، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سبيطلة فمنعوهم من دخوله. وركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأسرى، حتى لقد كنت أرى فى موضع واحد أكثر من ألف أسير.

وذكر أشياخ من أهل إفريقية، أن ابنة جرجير لما قتل أبوها تنازع الناس فى قتله وهى ناظرة إليهم فقالت «قد رأيت الذى أدرك أبى، فقتله». فقال لها الأمير ابن أبى سرح «هل تعرفينه ؟» فقالت «إذا رأيته، عرفته» قال فمر الناس بين يديها حتى مر عبد الله بن الزبير فقالت «هذا والمسيح قتل أبى» فقال له ابن أبى سرح «لم كتمتنا قتلك إياه»؟ فقال عبد الله «علمه الذى قتلته من أجله» فقال الأمير «إذا والله أنفلك ابنته» فنفله ابن أبى سرح ابنة الملك جرجير، فيقال إنه اتخذها أم ولد، ولما انهزمت جيوش جرجير سار عبد الله بن أبى سرح حتى نزل باب مدينته العظمى قرطاجنة، فحصرها من كان معه من المسلمين حصارا شديدا حتى فتحت، فأصاب فيها من السبى والأموال ما لم يحط به الوصف.

**من كتاب (البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذارى.**

# تطاول الناصر فى البنيان

وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[1] كلفا بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعز السلطان؛ فأقضى به الإغراق فى ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء. البناء الذى شاع ذكره : استفرغ وسعه فى تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها. فانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متوالية؛ فأراد القاضى منذر[2] أن يغض منه بما تناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكرة بالإنابة والرجعة؛ فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3]. ولا تقولوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى! وهى دار القرار، ومكان الجزاء. ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ومضى فى ذم تشييد البنيان، والاستغراق فى زخرفته، والإسراف فى الإنفاق عليه؛ فجرى طلقا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[4].

ولقد اتخذ الخليفة الناصر لسقف القبيبة المصغرة التى كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور بقصر الزهراء. قراميد مغشاة ذهبا وفضة، أنفق عليها مالا جسيما، وقرمد سقفها

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضي. الناصر لدين الله أو عبد الرحمن الناصر. ثامن الأمراء الأمويين فى الأندلس وأول من اتخذ لقب الخلافة فى الأندلس (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٣-٩٦١م)، يعتبر عصره من أزهى العصور الإسلامية فى الأندلس وذروة الحكم الأموى بها، كان محبا للعلم والجهاد والتشييد والبناء، قضى على الفتن والثورات ووحد الأندلس تحت حكمه القوى، انتصر عدة انتصارات مؤثرة على النصارى فى الشمال انتزع على أثرها أجزاء كبيرة من مملكة ليون. أهم إنجازاته العمرانية بناء مدينة الزهراء الملكية عام ٣٢٥هـ على مسافة ٣٠كم شمال غربى قرطبة التى تعد بحق معجزة معمارية، أصبحت العاصمة قرطبة فى عهده أعظم مدن العالم حيث كانت مركزا للعلوم والآداب فكان بها أكثر من سبعين مكتبة تحتوى الواحدة منها على أكثر من أربعمائة ألف كتاب، توفى عام ٣٥٠ هـ.

(٢) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن نجيح النفري، قاضى الأندلس وفقيهها فى عهد عبد الرحمن الناصر، قضى بمذهب مالك بن أنس وأصحابه، تقلد منصب القضاء بقرطبة عام ٣٣٩هـ، ولبث قاضيا إلى أن توفى عام ٣٥٥ هـ.

(٣) (الآيات ١٢٨ : ١٣٥ سورة الشعراء)

(٤) (الآية ١٠٩ سورة التوبة)

بها، تشتت الأبصار بأشعة أنوارها. وجلس فيها يوما، إثر تمامها، لأهل مملكته. فقال لقرابته منهم من الوزراء وأهل الخدمة، مفتخرا بما صنعه من ذلك : هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلي فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا! يا أمير المؤمنين! وإنك لواحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره! فأبهجه قولهم وسره.

وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد، واجما ناكس الرأس؛ فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب، واقتداره على إبداعه؛ فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله! يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان لعنه الله! يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قبلك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين! قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول! وكيف أنزلتني منزلتهم؟ فقال له: نعم! أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1]. فوجم الخليفة، وأطرق مليا، ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه، ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله، يا قاضي! عنا وعن نفسك خيرا! وعن الدين والمسلمين أجل جزائه! وكثر في الناس أمثالك! فالذي قلت هو الحق! وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنقض سقف القبة، وأعاد قرمودها ترابا على صفة غيرها.

**من كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهي**

□□□

(١) (الآية ٣٣ سورة الزخرف)

## من غرائب حكم الحاكم !

ولى الحاكم[1] مصر فكان شـر الخليقة. لم يل مصر بعد فرعون شـر منه، رام أن يدعى الإلهيـة كمـا إدعاها فرعـون، فأمر الرعيـة إذ ذكره الخطيب على المنـبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفا إعظاما لذكره، واحتراما لاسمه. فكان يفعل ذلك فى سائر ممالكه حتى فى الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدا. حتى أنه يسجد بسـجودهم فى الأسـواق الرعاع وغيرهم. وكان جبارا عنيدا. وشيطانا مريدا. كثير التلون فى أقواله وأفعاله. هدم كنائس مصر ثم أعادها وخرب قمامة (كنيسـة القيامة بالقدس) ثم أعادها، ولم يعهد فى ملة الإسلام بناء كنيسة فى بلد الإسلام قبله ولا بعده.

ومن قبائح الحاكم أنه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس بإغلاق الأسـواق نهارا وفتحها ليلاً، فامتثلـوا ذلك دهرا طويلا، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل التجارة فى أثناء النهار. فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا؟ فقال: يا سـيدى أما كان الناس يسـهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار، فهذا من جملة السـهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس على أمرهم الأول.

وكان يعمل الحسـبة (مراقبة السوق) بنفسـه يدور فى الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حمارا، فمن وجده قد غش، أمر عبدا أسـودا معه يقال له مسـعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنع من طبخ الملوخيا، وله رعونات كثيرة لا تنضبط، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولاسلافه فى صورة قصـص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وإزارها، وفى يدها قصة فيها من الشـتم شـىء كثـير. فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتهـا وأخذ القصة من يدها. فلما رأى مـا فيهـا غضب وأمر بقتلها. فلما تحققها مـن ورق إزداد غضبا إلى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، وقاتلهم أهل مصر قتالا عظيما ثلاثة أيام، والنار تعمل فى الدور والحريم، واجتمع الناس فى الجوامع ورفعوا المصاحف،

---

(١) هو الحاكم بأمر الله المنصور بن العزيز بالله، هو الخليفة الفاطمى السادس (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م)، خلف والده وهو فى الحادية عشرة من عمره. يعده بعض المؤرخين آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء، إتسمت فترة حكمه بالتوتر،اشتد فى عهده النزاع مع الدولة العباسية والقرامطة. إشتهر الحاكم بكثرة سفكه للدماء فضلا عن أوامره الغريبة التى ظل يمليها دائما على العامة، آمنت بعض الطوائف بربوبيته. اختفى عام ٤١١هـ / ١٠٢١م وأغلب الظن أن أخته قتلته ودفنته خفية فى بيتها.

وجأروا إلى الله واستغاثوا به، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر ثلثها، ونهب نحو نصفها وسبى حريم كثير وفعل بهن الفاحشة، واشترى الرجال من سبى لهم من النساء والحريم من أيدى العبيد.ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شره إلى أخته فيتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام فعملت على قتله، فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر فى النجوم، فأتاه عبدان قتلاه وحملاه إلى أخته ليلا فدفنته فى دارها وذلك سنة إحدى عشر وأربعمائة.

**من كتاب (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) للسيوطى.**

وفى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعمائة ورد الخبر بأن الحاكم حظر على النساء الخروج من منازلهن والإطلاع على سطوحهن ودخول الحمامات. ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن، وكان الحاكم قد لهج بالركوب بالليل يطوف الأسواق ورتب فى كل درب أصحاب أخبار يطالعونه بما يعرفونه. ورتبوا لهم عجائز يدخلن الدور ويرفعن إليهم أخبار النساء، وأن فلان يحب فلانة وفلانة تحب فلانا، وأن تلك تجتمع مع صديقتها وهذا مع صاحبته، فكان أصحاب الأخبار يرفعون إليه ذلك فينفذ من يقبض على المرأة التى سمع فيها مثل ذلك. فإذا اجتمع عنده جماعة منهن أمر بتغريقهن، فافتصح الناس وصخبوا من ذلك، فأمر برفعه والنداء بأنه متى خرجت المرأة من منزلها أباحت دمها. ورأى بعد النداء عجائز ظاهرات فغرقهن، فكانت المرأة إذا ماتت كتب وليها رقة إلى قاضى القضاء يلتمس غاسلة لتغسيلها. فوقع إلى صاحب المعونة إذا صح عندك وفاة المرأة المذكورة، أمرت رجلين من ثقاتك أن يحملوا الغاسلة تغسلها ثم تعاد إلى منزلها، ثم هم بتغيير هذه السنة.

اتفق أن مر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى، ببعض المحال فنادته امرأة من روزنة لها وأقسمت عليه بالحاكم وآبائه أن يقف، فبكت بكاءً شديدا وقال: لى أخ لا أملك غيره وعرفت أنه فى آخر رمق، وأنا أقسم عليك إلا أمرت أحمل إليه لاشاهده قبل أن يقضى نحبه. فرحمها ورق لها وأمر رجلين من أصحابه أن يحملاها إلى الموضع الذى تدلهما عليه. فأغلقت باب دارها وتركت المفتاح عند جارة لها وقالت: سلميه إلى زوجى ومضت إلى باب فدقته فدخلت وقالت للرجلين: إنصرفا، وكانت الدار لرجل يهواها وتهواه. فلما رآها سر بها فأخبرته بالحيلة التى نمت بها، فلما انصرف زوجها آخر النهار وجد بابه مغلقاً، فسأل الجيران فأخبروه بالحال وبما جرى لها مع قاضى القضاة، فدخل بيته فبات فى أقبح ليلة ثم باكر فى غد دار قاضى القضاة، فأعلن بالإستغاثة فأحضر فقال: أنا زوج المرأة التى فعلت أمس فى بابها ما فعلته وما لها أخ وما أفارقك حتى تردها إلى، فعظم على

قاضى القضاة ما سمعه وخاف الحاكم وسطوته إن لم يصدقه، فركب واستصحب الرجل ودخل على الحاكم وهو مرعوب فسأله عن قصته فقال: يا أمير المؤمنين لابد بعفوك مما تم على أمس. قال: وما هو؟ فشرح له الحال فأمر بإحضار الرجل فدخل فأخبره بالحال، فأمر قاضى القضاة أن يركب ويستصحب الرجلين الذى أنفذ بهما مع المرأة حتى يرشداه إلى الدار ليشاهد ما هو عليه ويقبض على القوم، وفعل فوجد المرأة والرجل نائمين فى إزار واحد على سكر، فحملا إلى الحاكم، فسأل المرأة عن الحال. فأحالت على الشيطان وما حسنه لها وسأل الرجل فقال: هذه امرأة هجمت على وزعمت أنها خلو من زوج وأنى لو لم أتزوجها سعت بى إليك لتقتلنى، فاستحللتها بموافقة جرت بينى وبينها، فتقدم الحاكم أن تلف المرأة فى بارية وتحرق، وأن يضرب الرجل ألف سوط. وعاد الحاكم يتشدد على النساء ويمنعهن من الظهور إلى أن قتل.

**من كتاب (المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم) لابن الجوزى.**

❑❑❑